معركة النظافة

تبذل وزارة الصحة فى هـذه الأيام جهدا عنيفا فى مكافحة الأوبئة ، وتتخذ فى هـذه المكافحة جميع الوسائل ، ومنها النشر والإذاعة والإرشاد — وهى وسائل نظرية — واستئجار الحمامات وإباحتها للجمهور مع منحهم الصابون للاستحمام وغسيل الملابس — وهى وسائل عملية — وزيادة كميات البترول لغلى الملابس — وهى وسائل مساعدة .

ويجب أن نذكر أن معظم الأوبئة المتفشية هى أمراض القذارة ، لأن الذبابة والفملة والبعوضة وهى ناقلة هـذه الأمراض حشرات لا تعيش إلا مع القذارة . وقد كتبنا مرة فى هذه المجلة مقالا تحت عنوان : "هل نحن شعب قذر" ؟ فنفينا أن تكون هـذه صفة أصيلة فى المصريين ، لأن التاريخ يحفظ عن نظافة مصر القديمة الشيء الكثير ؛ ولكننا صرنا شعبا قذرا لأسباب كثيرة فى مقدمتها الفقر الذى تعانيه الملايين .

فمتى ذكرنا أن هـذه الأوبئة هى أمراض الحشرات ، وأن الحشرات وليدة القذارة ، فلنذكر أن القـذارة هى وليدة الفقر فى أغلب الحـالات ولنذكر أن مكافحة الفقر مكافحة لأمراض القذارة جميعا ، ولأمراض سوء التغذية كذلك (وإن يكن هذا ليس مجال الحديث عنها) .

ولنحاول أن نتذكر — بعد أن نجحت مكافحة التيفوس وابتعد خطره — بحلول الصيف أن الشتاء قادم وأن مصدره كان هو القذارة ، وأن مصـدر القذارة هو الفقر المعجز عن النظافة ، فنستبق فى نفوسنا بعض الحرارة التى نستشعرها الآن لنحاول بها مكافحة الفقر بقدر الإمكان .

والآن تجهد وزارة الصحة كل الجهـد لمكافحة القذارة ، وتنشر الدعاية ضدها بكافة الوسائل ، فيستجيب لها القادرون على النظافة ، بينما يسمع الآخرون هذه الدعاية ويقابلون أكفهم من الأسف على أنهم لا يستطيعون تلبية الدعوة ، وإنقاذ أنفسهم وأهليهم من الداء الذى يهددهم فى كل آن .

يستجيب لدعوة النظافة من يملكون الصابون ، ويملكون البترول ، ويملكون الثياب ، ويملكون نوعا من الفراش ، فأما أولئك الذين لا فراش لهم إلا الهلاهيل ، ولا ملابس لهم إلا الأسمال أو مايشبه الأسمال ، ولا قدرة لهم على شراء البترول لغلى الهلاهيل ، ولا على شراء الصابون لغسلها ، بل الذين لا يستطيعون شراء المـاء — وللـاء سعر فى كثير من الجهات يعجز عنه الكثيرون ، أما هؤلاء فيسمعون ويسكتون وإن أعينهم لتفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون !

وقد أحست وزارة الصحة بهذه الحقيقة المرة ، فاستأجرت عشرات الحمامات وأباحتها للفقراء وقررت أن تصرف لهم الصابون بالمجان ليستحموا ويغسلوا ملابسهم ، وقد تدفقوا على هذه الحمامات بالألوف ، مما يشعر أن القذارة ليست طبيعية فيهم ولا رغبة لهم ، وإنما هى ضرورة واضطرار

ولكن هذه الحمامات التى استؤجرت وفتحت أبوابها للفقراء يقع معظمها فى العواصم والعواصم ليست كل شىء ، وهنالك ملايين فى الريف قذرون يسبح القمل فى أجسادهم وملابسهم ولا عاصم لهم من الأوبئة ، ولا قدرة لهم على النظافة ؛ وهم ينتقلون هنا وهناك وينقلون معهم قملهم وتيفوسهم وسواه من الأمراض فماذا أعدت وزارة الصحة لهـذا كله وماذا أعدت الأمة لوقاية نفسها مما يهدد افرادها جميعا :

إنه لا يكفى أن تكون هناك فى العواصم حمامات مفتحة الأبواب للجماهير — وإن كانت لن تكفى الجماهير — وهبها تكفى جماهير العواصم العاجزة عن النظافة ، فإن وراء المدن ملايين أخرى لا يستطيعون أن ينتقلوا اليها ولا أن ينتفعوا بحماماتها .

وإنه لا يكفى أن يسمع الناس دعوة وزارة الصحة فينفذها بضع عشرات من الألوف القادرين على النظافة ثم تبقى الملايين ينطبق عليها المثل العـامى (العين بصيرة واليد قصيرة) ويبقى القمل يسبح فى أجساد هذه الملايين وملابسهم وأسمالهم ، وينقل معه الداء الوخيم القتال.

وإن المهمة ليست مهمة وزارة الصحة وحدها ، ولا مهمة الدولة وحدها . إنها مهمة الأمة . فهذه الأمة مهددة بالخطر ، ولن ينفع الأغنياء النظيفين فيها أن يحاربوا الحشرات فى بيوتهم الخاصة وفى ملابسهم الخاصة ، بينما الفقراء القذرون يملأون المسالك والفجاج ، وينثرون حشراتهم وأمراضهم فى كل مكان .

نعم إن وزارة الصحة يقظـة وهى تبذل أقصى ما تستطيع وتوزع آلاف قطع الصابون بالمجان . ولكن جهودها مهما تكن ، محدودة بالقياس الى هذه الملايين . والأمة بمجموعها مسئولة لا وزارة الصحة بمفردها

يجب إذن أن تصنع الأمة لنفسها شيئا ، وأن تدرأ الخطر عن نفسها بشىء من التضامن وشىء من التعاون وشىء من التضحية الخفيفة ، التى لا يشعر بها المتوسطون فيها بله الاغنياء

ويجب أن يكون هذا الذى تصنعه الأمة لنفسها عملا مباشرا فى سبيل النظافة ، وعملا محليا لا يصطبغ بصبغة الرسميات ولا بالإجراءات المطولة التى لا تلاحق خطوات الداء .

فى كل مدينة أغنياء وفقراء ، وفى كل قرية أغنياء وفقراء ، وفى كل حى من الأحياء أغنياء وفقراء . وإن الأغنياء فى كل مدينة وكل قرية وكل حى ، ليستطيعون أن يتبرعوا بشىء من الصابون وشىء من البترول . وإنهم ليستطيعون أن يتصلوا اتصالا مباشرا بالفقراء بوسيلة من الوسائل — ولتكن فى صورة جماعة من المتطوعين يزورون البيوت بيتا بيتا فيوزعون عليه الصابون والبترول ، ويبثون الدعوة المباشرة للنظافة ، والتحذير المباشر من القذارة والأوبئة

ولكن الصابون والبترول ، إنما يجديان حين تكون هناك ملابس تغسل وتغلى ، وأنا أؤكد للسادة الأغنياء ، أن هناك من ليست لهم ملابس تغسل وتغلى . فستبقى المهمة إذن معطلة ما لم يكن لهؤلاء ملابس . ونحن لا نريد لهم ملابس حريرية أنيقة ، إنما نريد لهم لباسا وكفى لباسا من أى نوع ، فليكن من عمل هذه الجماعات أن توفر لهؤلاء الناس لباسا أيا كان !

هذه هى الوسائل العملية . أما مجرد الدعوة والتحذير فقد يفيد ، ولكنه لن يقاوم الداء ، ولن يمنع القذارة ، ولن يحمى الأغنياء من قذارة الفقراء !

* * *

قرأنا منشورا للحكمدارية بالتنبيه المشدد على رجال البوليس بالنظافة وتوقيع أشد العقوبات على من يتهاونون منهم فى العناية بها .

ويجب أن يكون رجال البوليس آية فى النظافة ، ويجب أن توقع أشد العقوبات على المهملين منهم فى النظافة ، فإنهم مظهر الحكومة ، وعنوان الدولة ، ومنفذو القانون . ولكن يجب فى الوقت ذاته أن يكونوا قادرين على النظافة ، فانا لنعلم أن مرتباتهم ضئيلة ، وأن الغلاء يرهق كبار الموظفين ومتوسطيهم لأن قدرة مرتباتهم على الشراء قد هبطت إلى ما يقرب من الربع ، فرجال البوليس مرهقون إذن بمطالب الحياة ، وقد يعجزهم هذا الإرهاق عن المحافظة على النظافة المطلوبة منهم ، وقد يقعون تحت طائلة العقاب ، أو يتقون العقاب بتجويع أنفسهم وأهليهم لشراء الصابون والبترول !

ونحن نقترح أن تصرف لهم الحكمدارية : إما على حساب الدولة ، وإما عن طريق التبرعات — كميات مناسبة من الصابون والبترول بالمجان مساعدة لهم على تنفيذ اوامر الحكمدارية الواجبة التنفيذ ، فإن هذه خطوة عملية فى مكافحة القذارة ، وإنه لواجب لمظهر الدولة ولممثليها فى تنفيذ القانون .

يجب أن نكون عمليين ، وألا نكتفى بالدعاية أو بالتعليمات ، فالدعاية واجبة ، والتعليمات ضرورية ، ولكن التيسير والتسهيل واجبان كذلك . وفى الأقوال المأثورة : (إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع) .

إن الدعاية سهلة وإن التعليمات سهلة كذلك ، ولكن الأمور لا تتم بالدعاية ولا بالتعليمات وإنما تتم بالأعمال ، والأعمال اصعب ولا شك ، ولكن لا بد لنا من مواجهة الصعاب ، وقد أصدرت الحكومة امرا عسكريا يتيح لها إجبار الأفراد على نظافة المساكن والشعر والبدن والمفروشات من الحشرات ، وكذلك إجبار أصحاب وسائل النقل العمومية والمنتديات وما إلى ذلك على رش المواد المبيدة للحشرات و يمكنها من سحب رخص السواقين والباعة الجوالين والسيارات والعربات ذاتها إذا اتضح وجود القمل أو غيره من الحشرات فيها .

وكل هذا جميل ومشكور . ولكن يبقى المنبع . يبقى عجز الكثيرين عن النظافة لأنهم لا يملكون وسائل النظافة . وقد أدت وزارة الصحة واجبها ، وبقى أن تؤدى الامة واجبها كذلك . وها هو ذا صوت النذير يدوى فى آذانها ، وأداء الواجب لا يكلفها إلا القليل .